الأعمال الكاملة للشاعر
عبد الوهاب البيّاتي



صوت السّنوات الضّوئيّة

دار الشروق

صوت السنوات الضوئية

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 257706

بيلا أخمدولينا

النحلة العاشقة

فى أدراج مكتبى
لا يريدون أن يناموا
لأنهم أحياء
وأنه لعذاب أن يدفنوا أحياء
ولهذا ، فنحن نفترق
اذهب ، أنت ، يا شعرى إلى الشعب
بينما أذهب أنا
إلى حيث جميع الناس
ينتهون .

جوزيف برودسكى

ولدت بيلا أخمدولينا فى موسكو عام ١٩٣٧ . ونشأت فيها . وتشبعت بروح التقاليد الديناميكية التى ازدهرت فى موسكو خلال السنوات الثورية .

وهى فارطة الجمال وبالغة الأناقة . وضعت كل حماس الفنان وعاطفته المشتعلة المشبوبة فى فنها . فأصبحت إحدى علامات الفتنة والسحر . فالاتحاد السوفيتى ... من البلاد القليلة فى العالم التى يستطيع فيها الشاعر عن طريق أعماله الإبداعية ، أن يصبح نجمًا لامعًا . يفوق نجوم السينما والغناء والمسرح ... والرياضة والسياسة شهرة .

بدأ حبها الكبير بشعر باسترناك وبجورجيا التي كتبت بعض أعمالها الغنائية عنها :

والله ، شهيد ، بأن حلمي بك ،

يا جورجيا عميق .

وقد بدأ نجمها في الصعود في أواخر الخمسينات ، عندما تزوجت بالشاعر يفجيني يفتوشنكو وهو في أوج نضوجه وشهرته ... وعندما نشر مجموعة من قصائد الحب التي أهداها إليها . بدأت المجلات الأدبية المشهورة والنوادي الأدبية والمؤسسات تتهافت عليها .

ولكن الموت أو الزمن الذي يحطم التيجان ويهزم الإمبراطوريات والأهواء الباطلة والعشاق . كان له ولها . بالمرصاد ، فلم يلبث أن فرق بينها وبين يفجيني يفتوشنكو ذلك لأن الرباط المقدس ، انتهى إلى الخصام والانفصام ... لأن

كل إرادة أو قوة تريد أن تسيطر أو تلغي الأخرى ... كان على أحدهما أن يتنازل للآخر عن وطنه الشعرى الذى بناه ، ولما كان ذلك غير ممكن ... لأن التنازل عن مجد ذاته ، يعتبر إلغاء للآخر ، وجعله تابعًا .

والشاعر العظيم لا يؤمن بالواحد ـ لذاته ـ وبذاته ـ بل يؤمن به ، طريقًا إلى الكل ، كما يؤمن بالكل طريقًا إلى الواحد . وليست هنا . أى ثنائية فى هذه الوحدانية الفاجعة ... فالعاشق يعيش على حافة البؤس أو الشقاء معلقًا بخيط أمل أسود . لا سبيل منه إلى النجاة أو الموت .

ينبض قلب الكائن اللامتناهى بالعشق . فتنطلق صرخة من فمه فى برارى الله الشاسعة ... أقول لك : « ما هو هذا النور الأسود الذى يسكننا ؟ أقول لك : ما هو هذا الحب ؟ سأطلق النار عليك ، وعلى نفسى ، لأوقف هذا النزيف الأسود الأبدى . أنا راحل إلى حيث ذهب هذا الليل . اللعنة عليكم جميعًا ... الغزالة الذهبية فى المرج ، وأنا أعدو وراءها ... من سيأتى معى ؟ » .

والشاعر ليس سيد الكلمات فقط ، وإنما هو تابع ومولى وسيد قدره ومصيره أيضًا ... لهذا فإن كلاً من بيلا أخمدولينا ويفجينى يفتوشنكو ، قد أصبح نجمًا لامعًا كبيرًا لا يمكن له أن يدور فى فلك الآخر ، ولا يمكن أن يستمد ضياءه منه . كما أن حال كل منهما ، كان شبه حال « ولأدة » الأندلسية التى كانت تحترق بحبها ، وتقول :

أخاف عليك من عينى ومنى

ومنك ، ومن زمانك والمكان

ولو أنى ضممتك فى عيونى

إلى يوم القيامة ، ما كفانى

لهذا كله ، ولغيره ، آثرا الطلاق ، على أن تظل الصداقة قائمة بينهما . وهكذا كان . أما الصوت الآخر الراحل ، فقد ظل يطالب بحقه فى الحياة ، تردد معه غابات روسيا الشاسعة : « أقول لك : ما هو هذا النور الأسود ؟ لقد أصبحنا وحيدين ، وها أنذا ، الآن ، ألعنك ، باسم الشعر » .

لقد أشعل « باسترناك » هشيم الكلمات ، عندما قال مرة « كم هو شرير أن يولد المرء شاعرًا ... أقسم لك ... أن إيمان قلبى ، هو أعظم مما كان ، الآن ، وسيأتى الوقت ـ كلا ـ دعينى أخبرك ، بذلك ، فيما بعد ، أيها الليل مزقنى إربًا ، قطعنى مزقًا ، أيها الليل حوِّل الكلمة المنسية الغاضبة ، الناريَّة « الضمير » حوِّلها إلى رماد ، أحرقها بكل سطوع وتألق ... التهب ، يالسان اللهب المجنون واسطع فى منتصف الليل ... للمرة الأولى منذ أيام طفولتى ، أجد نفسى محترقًا ، منتشيًا ... كيف سأصف ذلك ؟ يجب أن أبدأ فى النهاية أو أننى لن أكتب ذلك على الإطلاق » .

وإذا كانت « أنا أخماتوفا » قد كتبت فى مقدمة المجموعة الشعرية التى

صدرت لها فى موسكو عام ١٩٦١ المعنونة «كلمات قليلة عن نفسى» : « بأنها أصبحت صديقة البحر فى سنوات شبابها . حيث كانت الخيول الفتية تتواثب حول محطة القطار القديمة » .

فإن « بيلا أخمدولينا » كانت صديقة وديان وجبال جورجيا . وإذا حاولت أخماتوفا أن تعود إلى قوة الكلمة نفسها « لأن كل كلمة . هى روح . روح حية . تختار جسدها الجميل » فإن بيلا أخمدولينا ملكة من ملكات النحل . لكنها ملكة عاشقة لا تموت لدى أول لمسة حنان . ولا تسكن فى الكلمات . بل إن الكلمات هى التى تسكن فيها . وإذا كانت « أخماتوفا » عندما انتقلت من لينينغراد فى عام ١٩٤١ بعد أن أصبحت المدينة شبه ميتة . من جراء الحرب . إلى موسكو ، ومنها إلى طشقند . قد عرفت فى لهيب أصياف طشقند لأول مرة « ماذا يعنى ظل الشجرة أو صوت الماء الجارى » فإن بيلا أخمدولينا . قد عرفت ، وهى ترحل فى الشوارع والعيون والأيدى . وفى داخل نفسها .

عيناى اللتان رأتا

ورأتا لا شىء ...

....

منذ تلك الأيام الرهيبة

مئات السنوات مضت

عندما مت ، وحيدًا ، فى البيت هنا
فقيرًا بلا عمل أو أصدقاء

أحبها بعض شعراء الخمسينيات ، وتوددوا إليها . وأهدوها بعض قصائدهم ، منهم الشاعر أندريه فوزنيسنسكى الذى كتب عنها قصيدة بعنوان : (إلى أخمدولينا) . ولعل أجمل وصف ورد فى تاريخ الشعر السوفييتى الحديث . هو هذا الوصف . لإحدى أمسيات أخمدولينا الشعرية . الذى قام بترجمته إلى الانجليزية (أودن) :

« نجر من الشبان بوجوه . برح بها الوجد . ونساء متوسطات العمر . بملابس سمراء قاتمة . وجوه رمادية . بعضهن بعيون مغرورقة بالدموع . يتدافعن بالأيدى والمناكب .

امرأة جميلة تندفع على خشبة المسرح ، تنتعل خفًا بكعبين عاليين . ملابسها الحريرية الزرقاء ، بالغة القصر ، شعرها الضارب إلى الحمرة مصفف على أحدث طراز .

تنظر مثل دمية بعينيها الواسعتين السوداوين المزوقتين . تقف هناك ، مرتبكة ، برهة . ممسكة بالميكروفون . رافعة وجهًا ثابتًا . غير مرئى من الجمهور . بعد ستة أو سبعة انفجارات من التصفيق . ترفع ذراعها اليسرى بوجل وبإيماءة دائرية . يخيم صمت مطبق على جمهور المستمعين لثوان » .

يتهيأ ليبلا أخمدولينا . لأول مرة . غدة قراءات شعرية فى عدة أشهر . هذه المرأة أكثر شاعرة شابة شهرة فى الاتحاد السوفيتى . وأمسية نادى الصحفيين . هى إحدى أهم الأحداث الكبيرة للموسم الأدبى فى موسكو فى ربيع ١٩٦٧ .

تلقى أخمدولينا حممها المتفجرة أو براكينها من الذاكرة . عيناها الآن . مغمضتان على الأغلب مشددة على قوافى وإيقاعات شعرها .

صوتها رخيم مؤنس . تبدو على وشك الذوبان فى الدموع كما لو أنها تخاطب (بومبى) .

تنشر بعض أشعارها فى مجلة (نوفى مير : العالم الجديد) ومجلة (يونست : الشباب) .

نماذج من شعرها

حلم

الرعد يخترق بيتنا

عاصفة ثلجية تدور حولنا ، حريق ،

دوارة عواء

عويل ، حريق ،

يعزف ألحانًا على البيانو

جارحًا رأسى

أواه ، ياشقيقتى ، ناولينى بعض الثلج . منتصف الليل

ضرب أطنابه ، غنى أغنيته

أواه لأهدىء الفجوة المظلمة فى رأسى

الماء لاذع مع الثلج

رأسى يشتعل مثل آخر جسر

يعزلنى ، جزيرة يتيمة

شقيقتى ، بعض الثلج ، لإنقاذى !

بعض الثلج الأبيض

رأسى الواهن ماكنة ضخمة

يتعاقب عليها البشر والمدن

كيف السبيل للخروج من هذه الدوامة ؟

ناولينى بعض الثلج ، الأبيض ، الثلج الأبيض

أشتعل فى أتون مثل أية جان دارك

كلاب عاوية ، حشود صافرة ـ أنا لا أزال صبية ـ

ثلج قطبى ، ارحمينى

يقال بعدئذ

إن حنجرتها كانت أصغر

من أن تتسع لمثل هذه الصرخة الكبيرة

خمسة عشر شابا

خمسة عشر شابًا ، ربما أكثر

ربما أقل

بأصوات متوجسة

حاولوا معى :

« لنذهب إلى السينما أو إلى متحف الفنون الجميلة »

جوابى ، أكثر أو أقل :

« فى الحقيقة ، ليس لدى وقت »

خمسة عشر شابًا ، قدموا لى أزهار الثلج البيضاء .

خمسة عشر شابًا بأصوات مسحوقة

أكدوا لى

لن نكف عن حبك »

جوابى ، أكثر أو أقل :

« سنرى »

خمسة عشر شابًا يعيشون الآن فى سلام

لقد نفذوا المهام الجسيمة

لأزهارهم الثلجية البيضاء ورسائلهم وقنوطهم

فتيات يحبونهم ... الآن

بعضهن أكثر جمالاً

أخريات أقل ، منى جمالاً ، أنا

خمسة عشر شابًا بافتعال

وأحيانًا بإعجاب

يحيوننى عندما يمرون

عندما يمرون بى ، يحيون

محررتهم من طقوس النوم والطعام المملة

أنت الشاب الأخير القادم بتواضع
سأضع أزهارك الثلجية البيضاء فى قدح ماء
وبسيقانها المكتنزة
فى فقاعات الفضة ، ستقف .
لكنك ، ستكف عن حبى أيضًا ـ سترى
وعن كونى سيدتك ،
ستخاطبنى بكبرياء
كما لو كنت قد استعبدتنى
عند منحدر الشارع وأنا أمضى

اندريه فوزنيسنسكي

صوت السنوات الضوئية

ولد أندريه فوزنيسنسكي فى موسكو عام ١٩٣٣ ولكنه قضى معظم طفولته فى (الأورال) فى المدينة القديمة (فلاديمير) ثم عاد إلى موسكو بعد الحرب الكونية الثانية . والده بروفسور فى الهندسة . وهب نصف قلبه إلى الفن والأدب والثقافة ـ وقد درس شاعرنا أندريه فى موسكو الرسم أولاً . ثم الهندسة المعمارية ، ولكنه كان . كما يتحدث هو عن نفسه (ولكن طوال الوقت . كان الشعر ينبض فى داخلى مثل نهر تحت الجليد) .

وقبيل تخرجه فى معهد الهندسة رأى كأن حريقاً قد شب فى ذلك المعهد فأتى على كل شئ . مدمراً تصاميم الأبنية والمدن . وقد رأى الشاعر فى رؤياه لذلك الحريق نبوءة . فترك الهندسة المعمارية إلى الشعر :

حريق فى معهد الهندسة المعمارية
خلال جميع الغرف وفوق
التصاميم الهندسية
مثل عفو عام فى السجون
حريق ! حريق !

ويعتبر أندريه فوزنيسنسكى الآن من أشهر ممثلى شعر الخمسينيات . إن لم يكن الشاعر الأول . وقد ولد وعاش فى أخطر مرحلة من مراحل تاريخ وطنه .

وهى مرحلة بناء أول وأكبر دولة اشتراكية فى العالم ، كما كان وريثاً لأخطر وأنضج تراث شعرى وروائى فى تاريخ الأدب العالمى الثورى ، هذا التراث الذى شيد صرحه الأول الشاعر العظيم بوشكين ونكراسوف وليرمنتوف ثم أعقبته الموجة الذهبية التى وهبت العالم أمثال ، سيرجى يستين وفلاديمير ماياكوفسكى وبوريس باسترناك وأنا اخماتوفا وألكسندر بلوك ، إلى جانب الروائيين العظام : غوغول وتورجنيف وتولستوى وديستوفسكى وتشيخوف وغوركى .

ويرى فوزنيسنسكى فى باسترناك أستاذاً له ، وأعماله الأولى تحمل بعض تأثيراته .

ولكن الجرم الصغير الطالع ، لم يلبث أن انفصل عن الكوكب الذى كان يدور فى فلكه ، واختط له مداراً جديداً ، لكى يصبح هو بدوره (صنّاعاً للكلمات) ولكى يثبت بأن (الفن الأصيل هو فن ثورى دائماً)و (لدنيا نحن جميعاً ، ظمأ إلى الشعور بالاتحاد الرمزى الذى يحدثه الشعر) .

وإذا كان ألكسندر بلوك ، قد قال فى خطاب له ، ألقاه قبل موته فى الاحتفال بذكرى بوشكين فى ٧آدب ١٩٢١ (من هو الشاعر ؟ هل هو الذى يكتب الشعر ؟ بالتأكيد كلاً . إنه لا يسمى شاعراً . لأنه يكتب الشعر ، مع ذلك ، فهو يكتب الشعر ، ليضبط إيقاع الكلمات والأصوات ، لأنه ــ أى الشاعر ــ ابن الإيقاع ، وما الإيقاع ؟ أنه تناغم القوى الكونية ونداء الحياة الكلى) فإن أندريه فوزنيسنسكى كما قال فى قصيدته (مصابيح فلورنسة) :

وأنه قد أثبت ، بما لا يقبل الجدل ، بأنه ليس ابن الإيقاع فقط ، بل كما كتب يصف جوجان Gauguin : لكى يصل إلى قاعات « اللوفر » الملكية من « مونمارتر » كان عليه أن يقوم برحلة عبر « جاوة » و « سومطرة » .

وإذا كانت السنوات الضوئية لا تكفى كلها ، لكى توقف نزيف الشعراء ، فإن لوركا وليرمنتوف وبوشكين وغيرهم يظلون الشهادة على أن نداء الحياة الكلى ، ليس شمعة تلتهب فى مهب الريح أو أبياتاً لا تزال تنظر نهاياتها :

أحب لوركا

أحب اسمه ...

كان الفرنكويون قد قتلوه فى ١٨ أغسطس ١٩٣٦ .

القتلة يحاولون تفسير ذلك ، كما لو كان صدفة .

آه يا للمصادفات !

بوشكين ـ سوء تفاهم ؟

ليرمنتوف ـ صدفة ؟

وقد حمل أندريه معه الثمار الذهبية والبذور والأزهار والقواقع وحبات المطر . وهو يلقى أشعاره فى ساحات ومتنزهات وقاعات الاتحاد السوفيتى وبلدان أوربا وأمريكا :

قلب « أخيل » ياقلبى

امنحنى السلام

وأثبت بما لا يقبل الجدل بسلوكه وشعره أن الفن (ليس ترفاً ، إنه أمنية اللاموجود والوسيلة لتحقيق هذه الأمنية . الثورة شعر والإنسان الكامل شاعر) .

وما بين قولة غوركى : « فى أى صف تقفون؟ مع السادة أم مع الثقافة ؟ » .

ومقولة بلينسكى : «إن العبقرى وحده هو الذى يستطيع أن يوجد دون أن ينتمى لحزب . لأنه هو نفسه راية سرعان ما يتشكل تحت ظلالها حزب » يرسم الشعر علامة استفهام كبيرة : « على أرض أى كوكب سيهبط الشاعر الليلة ؟ » فهو أول من يعلم وآخر من يعلم .

وأندريه يختلف عن يفجينى يفتوشنكو (الذى ولد فى عام ١٩٣٣ ايضاً) بأنه مربوع القامة ، أكثر حيوة فى نظراته وملابسه ، وأكثر هدوءاً ودعة ، تتحول بعض القصائد بين يديه إلى لوحات يغمرها الظل واللون والنور والحركة :

فتاة بشعر برتقالى براق

وذراعين بيضاوين ...
أنت ملاك من عالم آخر
صورتك الجانبية تشتعل مثل ضياء أبيض ...
أنت تعرفين أشياء السماء ،
أصوات السنوات الضوئية .
خلال السنوات الضوئية هذه دعينا نختفي

من قصيدة « إلى بيلا أحمدولينا »

ينشر أندريه قصائده في مجلة (العلم والحياة) ومجلة (الشباب) وقد صدر د من أشعاره في عام ١٩٧٥ . أما أشهر مؤلفاته الشعرية فهي : فسيفساء ١٩' . الكمثرى المثلثة ١٩٦٢ . العوامل المضادة ١٩٦٤ . قلب أخيل ١٩' . ظل الصوت ١٩٧٠ . نظرة ١٩٧٢ .

قبل أن يرتفع صخب مهرجان الشعر العالمي في روتردام بيوم واحد ، كان ريه فوزنيسنسكي قد وصل وحده دون أن يرافقه أحد . وعندما دخل ندق الذي نزلنا فيه ، جال بعينيه واتجه إليّ ، وكنت آنذاك جالسًا في سالون أرتشف القهوة . تبادلنا التحية والسلام . وبعد خمس دقائق استأذن ى يذهب إلى غرفته لفترة وجيزة ثم يعود . ذهب ثم عاد بعد دقائق لكي ل بنا الصحبة والحديث لمدة خمسة أيام متوالية .

اقترح عليّ أن نذهب إلى إحدى دور السينما التى كانت تعرض فيلم « أحدهم طار فوق عش الغراب ـ أو المجانين » و « عش المجانين » هو الفيلم الطويل الخامس لمخرجه ميلوش فورمان .

وقبل أن يبدأ الفيلم بساعتين ، قمنا بجولة استطلاعية فى أغلب شوارع روتردام الرئيسية . سألنى باهتمام شديد عن كثير من الشعراء العرب والأدباء والكتّاب العرب ، وكأنه يعرفهم معرفة طويلة ، ويعرف الشىء الكثير عن مؤلفاته وإبدعاتهم الشعرية والأدبية ، وتناول الحديث بشكل خاص يوسف إدريس ومحمود درويش ، وأوضاع المثقفين فى الوطن العربى عامة ، والعراق خاصة ، ثم انتقل الحديث إلى بعض الأمور الخاصة التى تتعلق بأعماله الشعرية وبأعمالى ، وببعض أصدقائنا ... المشتركين من الشعراء العرب والسوفييت والأوربيين .

وبعد أن خرجنا من السينما ذهبنا إلى نادى الفنانين ، وانضممنا إلى مجموعة كبيرة من الشعراء الهولنديين والأوربيين وغرقنا معهم فى أحاديث لا تنتهى ، تناولت كل شىء يخطر على البال أو لا يخطر وانتهى اللقاء الأول عند الفجر .

ثم أعقبه لقاء آخر وآخر ، وكان الرابع هو لقاؤنا مع جريجورى كورسو ، وبين هذا وذاك ، تركنى مرة فى المقهى الملحق بقاعة مهرجان الشعر الكبرى ، وفى غيابه تقدمت إلىّ فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها بزى ساحرات القرن التاسع عشر ، وتركت ورقة مطوية بين يدى ، واختفت . فتحت الورقة بيد

مرتجفة . وقرأت فى أعلاها (إلى البياتى وإلى مرآة شعره الساحرة) وفى وسطها قرأت القصيدة الصغيرة التالية « وكانت مكتوبة بالانكليزية وبخط جميل » :

الماء

يتساقط قطرات على اليد

. . . . . .

والرؤيا فى الماء

والسر الإلهى فى الباطن

. . . . . .

مرآة نرسيس تتحطم

لم يبقَ هناك شىء

فى قاع البحر

الذى يضيع فيه كل شىء

وكانت القصيد موقعة بإمضاء (دورين) . بعد دقائق عاد أندريه فوزنيسنسكى مصحوبًا ببعض الأصدقاء . فاستنجدت به وبهم ، لكى يساعدونى فى العثور على الشاعرة صاحبة القصيدة . لأقدم إليها شكرى وأتجاذب معها أطراف الحديث . فلم يروا من طريقة للعثور عليها إلاّ بمناداتها

عن طريق الميكروفون ، وقد نودى عليها فعلاً مرارًا وتكرارًا بدون جدوى ، لأنها كانت قد أمعنت فى الاختفاء ولم تظهر حتى لحظات مغادرتى روتردام .

* * *

عندما جاء دور أندريه فى الإلقاء حدث شىء غير عادى . كان الجمهور أكثر من المعتاد (هذا مع العلم بأن عدد الذين كانوا يحضرون يوميًا كان يزيد عن الألف ، وكانت عدسات التليفزيون مصوبة إلى عيون الشاعر ويديه وفمه ، وظلت مصوبة إليه ، طوال الثلاثين دقيقة . وعندما انتهى من الإلقاء ، أغمضت العدسات عيونها ، وانفجر الجمهور بالهتاف والتصفيق . وكان أندريه قد قرأ بعض قصائده باللغة الروسية فقط ، ورفض أن تلقى بلغة ثانية ، لأنه ، يعتقد ، كما قال للجمهور ، بأنها ستفقد الشىء الكثير فى ترجمتها إلى اللغة الأخرى . أما بعض قصائده فقد ألقيت بالهولندية والانكليزية .

كانت طريقته فى الإلقاء تعتمد على أسلوب المدرسة الروسية الكلاسيكية ـ الجديدة ، التى تضرب جذورها فى التراث المسرحى الدرامى ، وتحاول أن تنقل إلى المتلقى ، ليس مضمون القصيدة وحده ، بل شكل الحروف والكلمات والأوزان والقوافى والإيقاع الداخلى ، والشكل العام للقصيدة كلها ، وهى طريقة قريبة إلى قلوب جمهور القاعات الذى يمثل ألوانًا مختلفة المشارب والأذواق والثقافات .

وإذا كانت هذه الطريقة ليست هى المثلى فى فن إلقاء الشعر ، فإن الجدير بشعرائنا العرب ، هو أن يتعلموا منها الشيء الكثير... ويكفوا عن الطريقة العشوائية المضللة التى يلقون بها شعرهم ، حيث يفسرونه بالحركات والإشارات باليد والأصوات عالية النبرة أو الخافتة ، التى لا تنسجم مع كلمات وأصوات وإيقاع ومضمون كل قصيدة على حدة ، فليس بالصوت الجهورى والحركات العشوائية وحدها يلقى الشعر.

ومن قصيدة أندريه التى ألقاها بالروسية بدون ترجمة هى قصيدة (جويا) التى يقول فيها :

أنا جويا

أنا جوع

أنا عنق

أمرأة مشنوقة تتأرجح جثتها

كالناقوس فى الميدان العريان

أنا عناقيد الغضب

* * *

بعد أن انفض السامر وطوى حديث الشعر . اتفقنا أن نلتقى فى اليوم الثانى

:

لكى يودع بعضنا الآخر ، وكان أندريه قد أخبرنى من قبل ، أنه يتعين عليه العودة إلى موسكو خلال يومين ، لأن مؤتمر الكتاب السوفييت سينعقد يوم الخامس والعشرين من حزيران ١٩٧٦ وأنه قد أعد بحثًا لكى يلقيه فى المؤتمر. وفى اليوم الثانى وقبل الموعد المنتظر ، سمعت طرقًا على باب غرفتى . وعندما فتحتها ، انحنى لى مدير الفندق بأدب جم ، وسلمنى مغلفًا كبيرًا ، وأخبرنى بأن صديق الروسى (هكذا قالها) قد رحل مغادرًا روتردام ، عندما كنت خارج الفندق ، وأنه كان فى عجالة من الأمر ، عندما فتحت الملف وجدت مجلد أشعاره الذى كان قد صدر فى عام ١٩٧٥ باللغة الروسية ، مع كلمة إهداء رقيقة . شعرت بحزن شديد . فها هو ذا أندريه قد رحل ، وكان قبله قد رحل أيضًا جريجورى كورسو ، وسأترك أنا ، هنا ، الآخرين ، وأرحل ، وتذكرت تلك الأبيات التى وضعتها الشاعرة الكبيرة أنا أخماتوفا فى مطلع قصيدة لها . كانت قد كتبتها ، قبل اندلاع ، ثورة أكتوبر ، بخمس سنوات بعنوان (١٩١٣) :

فى بطرسبورج سنلتقى ثانية

كما لو كنا قد دفنا الشمس هناك

. . . .

تلك كانت السنة الأخيرة

عزت سرابليتش

سنديانة على نهر درينا

العالم كله وطنى
ومناى عندما أموت
أن أكون حيث توجد قباب النور الإلهية .

- ١ -

زرت يوغسلافيا ثلاث مرات . كانت زيارتى الأولى لها عام ١٩٧١ أيام كنت مقيمًا فى القاهرة - لحضور مهرجان الربيع الشعرى الذى نظمه اتحاد الكتّاب اليوغسلاف فى سراييفو عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك ، وهى إحدى جمهوريات يوغوسلافيا الست . وزيارتى الثانية لها كانت فى عام ١٩٧٣ لحضور المهرجان السنوى الدولى الذى يعقده اتحاد الكتّاب المركزى ، كل عام من ١٨ تشرين أول إلى ٢٢ منه . بمناسبة تحرير بيوغراد العاصمة من الاحتلال الألمانى . ويدعى إلى هذا المهرجان عادة ، بعض الشعراء والكتّاب من مختلف بلدان العالم . وقد دعى معى إلى هذا المهرجان من الوطن العربى فى تلك السنة الأستاذ توفيق الحكيم . ولكنه لم يستطع الحضور لنشوب حرب أكتوبر .

أما زيارتى الثالثة ، فقد كانت عام ١٩٧٥ لحضور المهرجان الشعرى الذى عقد فى مدينة سراييفو مرة أخرى . وقد دعى معى فى هذه المرة الشاعر محمود

درويش وقد سافرنا معًا فى نفس الطائر من بيروت إلى بيوغراد . وكانت الحرب الأهلية فى لبنان ، وفى بيروت بالذات قد اندلعت ، ولهذا فقد وجدنا صعوبة كبيرة فى اختراق الحواجز المقامة على الطرقات للوصول إلى مطار بيروت .

وسراييفو التى زرتها فى عام ١٩٧١ وحدى ، وزرتها للمرة الثانية عام ١٩٧٥ (أنا ومحمود درويش) من أشهر مدن أوربا . فمنها كانت شرارة الحرب العالمية الأولى ، قد اندلعت ، عندما اغتيل فى أحد شوارعها أرشدوق النمسا . كما أن حركة المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال الألمانى ، بقيادة المارشال تيتو ، كانت قد بدأت من الجبال المحيطة والقريبة منها كما أنها تعتبر أجمل مدينة إسلامية تقع فى أعالى البلقان ، حيث يطلق عليها (المدينة ذات المائة مئذنة) . ولعل فن المعمار الإسلامى الذى بنيت على طرازه هذه المدينة الجميلة ، هو من أشد المناظر إثارة لنفس الزائر العربى والأوربى .

عندما حطت الطائرة على أرض مطار سراييفو ــ لدى زيارتى الأولى ، ثم اقتربت من مبناه ، لاح لى من بين الوجوه التى أعرفها ، وجه صديق الدكتور سليمان جروزدانتش مدير معهد الاستشراق فى المدينة وأستاذ الأدب العربى فى كلية الفلسفة ، كما لاحت لى وجوه أخرى ، لا أعرفها .

وقبل أن أتقدم من ضابط الجوازات ، اقترب منى ما يقارب العشرة أشخاص ، وهجموا على ، معانقين ومصافحين ومرحبين ، فسقطت الحقيبة اليدوية الصغيرة التى كنت أحملها وجواز سفرى . انحنى أحدهم ورفع الحقيبة

والتقط جواز السفر وهو يقول : « أرحب بك باسمى وباسم رفاقى فى اتحاد الكتاب » وكان المتحدث هو الشاعر اليوغسلافى الكبير عزت سرايليتش . ثم تابع ونحن ندلف إلى مقهى المطار ، مشيرًا إلى بعض الجالسين : « انظر ، لقد حضر هؤلاء الشعراء الضيوف قبلك بساعة ، ولكنى احتجزتهم ، هنا فى المقهى ، لكى يكونوا فى استقبالك أيضًا » : ثم ضحكنا جميعًا ، ونحن نتصافح ونتجه إلى السيارات التى كانت فى انتظارنا . جلسنا ـ أنا وعزت وسليمان فى سيارة واحدة ، انطلقت بنا ، بسرعة البرق إلى فندق المدينة ، فى شوارع باكرها الربيع ، فطفحت بالجليد الذائب والوحل . وهناك كان ينتظرنا بعض المرافقين من الأدباء والشعراء الشباب الذين لم يستطيعوا المجىء إلى المطار ، لعدم وجود سيارات كافية ، تحدث عزت معهم ، ثم قال « ها قد جاء الآخرون » .

بعد فترة وجيزة اكتشفت أن حقيبة ملابسى قد ضاعت ، مما سبب لى قلقًا ، لأننى كنت قد وضعت فيها كل ما أحتاجه أثناء رحلتى الطويلة .

عندما اجتمعنا بعد نصف ساعة على العشاء ، كان عزت سرايليتش يحدث أحد المرافقين بضرورة الاتصال بمطار سراييفو وبيوغراد للبحث عن الحقيبة الضائعة ، وإذا بأحد الشعراء يقول : « لا بد أن الحقيبة المفقودة قد ذهبت إلى وارشو » ضحك عزت ، وهو يقول للشاعر : « يتضح لى أيها الصديق ، أنك تكتب أشعارك بنفس طريقة استنتاجاتك الخاطئة هذه » لذنا بالصمت لقسوة

الملاحظة ولاذ الشاعر هو أيضًا بصمته ، وانزوى بعيدًا عنا .

كنت أرى (عزت) يستقبل بترحاب فى كل مكان ، فهو فى تلك الأثناء ، كان نائب رئيس اتحاد الكتاب ، كما أن شهرته التى طبقت آفاق يوغسلافيا وبلدان المعسكر الاشتراكى وأوربا ، جعلت منه محط أنظار الجميع : المحبين والحاسدين . كان يداعب الأطفال والشيوخ ويسخر من المتشاعرين والحاسدين والنظّامين فى وجوههم وكانت فرائص هؤلاء ترتعد عندما يرونه ، فيلوذون بالصمت أو يطلقون سيقانهم للريح . صديق للجميع . كل الشعراء المبدعين والنقاد يتفقون على أنه من أهم وأكبر شعراء يوغسلافيا المعاصرين .

امتدت صداقتى الحميمة له ، طوال أيام مهرجان الربيع الشعرى . وكان يصر على أن أتقدمه فى كل مناسبة .

قال مرة : « إن الشعراء هم الوحيدون فى هذا العالم ، الذين لا يستطيع فاتح أن يغزو ممالكهم الشعرية » . « يموت الدكتاتور والمهرج والقاتل والفاتح ، ويبقى الشاعر » . « كما أن السياط والسيوف والطعنات ، لا تستطيع أن تجلد أو تغتال مجد الشاعر ، لأن مجد الشاعر يسكن فى الكلمات . ومن الذى يستطيع اغتيال مجد الكلمات ؟ » كما قال لى مرة ، محذرًا من : « برد الليل وأضواء الشهرة والعدو الذى يتسلل فى ثياب صديق ، فقد يندس ، أحد هؤلاء إلى قلب الشاعر ، ويقطع وتر المغنى ، بل قد يسرقه ، وهو لا يدرى » وفى الأمسية الشعرية الرابعة لهذا المهرجان التى أقيمت فى مدينة (توزلا) وهى مدينة صناعية

معظم سكانها من العمال . قدمني عزت سرايليتش إلى الجمهور بمقدمة طويلة ، تحدث فيها بحب عميق عن الشعب العربي وحضارته العريقة العظيمة التي علمت أوروبا ، عندما كانت هذه ، تغط في سباتها . ووهبت العالم الشعراء والفنانين والفلاسفة والعلماء الأفذاذ ، وأشار إلى المآذن والقباب التي كانت شاخصة من وراء نوافذ القاعة ، الغارقة في المطر والمشرئبة إلى السماء .

وبعد أن انتهى من كلمته ، تقدمت إلى المنصة ، ثم بدأت بإلقاء قصائدي بالعربية أولاً ، ثم ألقاها بعدي أحد الشعراء اليوغسلاف بلغتهم مترجمة . وما أن انتهيت حتى ضجت القاعة بالتصفيق ، واغرورقت عيون الجمهور بالدموع ، وظلوا وقوفًا لمدة عشر دقائق ، وهم يهتفون بحياة الشعب العربي وبنضاله العادل ضد الاستعمار والصهيونية .

همس عزت في أذني بأنني قد صرعت (مليح جودت انداى) بالضربة القاضية فما الذي سيقدمه للجمهور ؟ وما الذي سيقدمه الجمهور إليه ؟ بعد هذا الاستقبال الحافل لي . وكان دوره في الإلقاء بعدي مباشرة (ومليح جودت أنداي من أكبر شعراء تركيا المعاصرين) .

ابتسم مليح جودت لي ولعزت ، وقال : « أنا أعرف بأنكما قد تآمرتما على . ولكني أخبيء لكما مفاجأة أيضًا ، وستريان » !

نهض مليح جودت متجهًا إلى المنصة بهدوء . وعندما واجه الجمهور قال :

« إن البياتي ، أيها الأصدقاء ـ كان شاعر هذه الأمسية بحق ـ كما أنه لم يبق لى شيئًا أقوله ، لذلك ، سأغنى لكم أغنية تحبونها ، أنتم جميعًا ـ وسأكتفى بذلك » ثم طفق يغنى أغنية حب تركية كانت شائعة فى البلقان قبل مائة عام ـ وما أن انتهى من غناء البيت الأول من الأغنية حتى شعرت كأن حريقًا قد شب فى قلبى وفى القاعة (بالرغم من أننى لم أفهم كلمات الأغنية أو مضمونها) .

فصوت مليح جودت العميق القادم من أعماق ليل البلقان الحزين ، الذى هبط فى تلك الساعات ، كان أشبه بصرخة مسكونة بالريح والمطر والعذاب ووميض البرق والسحر والموت والأسطورة ـ أو كان أشبه بصوت ولى غريق فى فيض النور ـ يستنجد ويستغيث ـ ولا من مغيث . وما أن انتهى مليح جودت (الولى والشاعر والمغنى) من غنائه حتى أضيئت القاعة أو المدينة بأكملها (هكذا أحسست) بوميض برق الربيع القادم من الجبال ـ وبقصف رعوده . لقد تفتح جرح عميق فى جدار الليل ـ وسال منه الدم . ولم أجد نفسى إلاّ وأنا أستنجد بالحضرة الإنسانية فى هذا الفيض الشعرى .

قال عزت : « الحمد لله ـ إنها ليلة مباركة ـ انتصر فيها الشعراء على الليل » :

هذه الليلة سنحب من أجلهم

كانوا ثمانية وعشرين . كانوا خمسة آلاف وثمانية وعشرين

كانوا أكثر مما يكون الحب فى أية قصيدة .
نحن الذين على أرصفة القرون آلمتنا عزلة جميع
روبنسونات العالم
نحن الذين بقينا فى صدر الدبابات
ولم نقتل أحدًا
صغيرتى الكبيرة ، هذه الليلة ، سنحب من أجلهم .

— ٢ —

« إن الادب فى تعريفه الخاص ليس مرتبطًا بأدواته . وإنما يلتمس من هذه الأدوات الوسائل المساعدة على البيان » . « فالشعر ليس هو الكلام الموزون المقفى . وأنما الوزن والقافية هما من أدوات الشاعر » .

« إن الشوق داخل روح الإنسان لا حدود له . أما ذلك العالم الذى نعيش فيه فله حدوده . والإنسان عندما تتصارع فى داخله الروح المفعمة باللانهاية مع واقع الوجود القاسى يبدأ فى المعاناة . ولما لم يعد ممكنًا الإغارة الجماعية . فليحاول الشاعر أن يتذوق طعم اجتياز الأفق وحده (فلنتخط نهرًا بعد البحر . ولتكن الشمس علمنا والسماء خيمتنا) (الخروج إلى الغربة وقت المعاناة —

الامتلاء بالغربة فى هذا العالم : الفتيان السبعة الذين عشقوا ، يخرج كل منهم ليلاً من باب المدينة ، ليبحثوا عن المحبوبة التى رآها كل منهم فى نومه) .

وعندما يلتمس الشعر من أدواته الوسائل المساعدة على البيان ، ولا يرتبط بها فقط يصبح أكبر من المعرفة ودونها ، أو كما يقول (منويل ماشادور) :

المتاعب والزمن
لقّنانى ما أعرف
كنت أظن أننى قطفت
البرتقالة والزهرة
فوجدتنى قنعت
بعود الحطب
هل أحببتك ؟ لا أدرى
هل عشقتنى ؟ لا أعرف
فلنمح الماضى إذن ، ولنبدأ من جديد
أنا مع أخرى وأنت مع آخر

- ٣ -

توقفت فى رحلتى الثانية أثناء حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ فى بيوغراد العاصمة فقط . لأن الدعوة كانت موجهة من اتحاد الكتاب اليوغسلاف المركزى . فاكتفيت بالاتصال التلفونى بالشاعر عزت سرايليتش .

أما فى رحلتى الثالثة التى صحبنى فيها الشاعر محمود درويش عام ١٩٧٥ فقد بدأت فى الصباح الباكر . وكان الخطف والاغتيال فى بيروت قائمًا على قدم وساق . وقد شققت طريقى إلى مطار بيروت بمفردى وهناك التقيت بمحمود درويش . حيث كان لرحلتى المشتركة معه أثر عميق فى فهمه شاعرًا وإنسانًا . ذلك الفهم الذى قادنى إلى حبه والإعجاب بشخصيته .

عندما هبطت الطائرة بنا فى مطار بيوغراد . كان علينا أن ننتظر عشر ساعات لكى نستقل الطائرة الأخرى الذاهبة إلى سراييفو .

جلسنا فى صالة المطار فترة قصيرة حائرين . ثم وفى نفس الوقت . قال كل منا وبصوت واحد : « لم لا نقوم بزيارة صديقنا المشترك الدكتور مراد غالب سفير جمهورية مصر العربية فى بيوغراد . وفى الطريق والتاكسى ينهب بنا الأرض . فكرنا : ماذا لو كان الدكتور مراد غالب غائبًا أو فى إجازة ؟ ماذا لو ... ؟ . وقف بنا التاكسى أمام مبنى السفارة . فهرع إلينا أحد موظفيها . قلنا له : هل الدكتور غالب موجود ؟ أجاب : نعم . تفضلوا . وبعد لحظات كان

الدكتور غالب معنا . تناولنا الغذاء معه ومع شيخ الأزهر الذى كان يز
يوغسلافيا فى تلك الأثناء بدعوة من حكومتها . ومع مدير الأوقاف فى العراق
وبعض رجال الدين المسلمين اليوغسلاف . كان من بينهم مفتى المسلمين وإ
مسجد بيوغراد (الذى تخرج فى جامعة الأزهر بالقاهرة . وكانت رس
الجامعية بعنوان ـ الالتزام القومى والإنسانى فى شعر عبد الوهاب البياتى ومح
درويش ـ) وكانت مصادفة غريبة ، كما كان هناك . أيضًا . الدكتور أنور
الملك الذى كان فى زيارة خاطفة .

وفى المساء صحبنا السفير الصديق بنفسه إلى المطار . وجلس معنا فى المق
لمدة ساعة تقريبًا . ثم ودعنا .

رأيت فى مطار سراييفو نفس الوجوه ، التى كانت قد استقبلتنى . قبل أ
سنوات . ولكن وجه عزت سرايليتش . كان غائبًا من بينها . همس فى أ
الشاعر أحمد محمد أمامو فيتش (وهو من ألمع شعراء يوغسلافيا الشباب .
عام ١٩٤٤) بأن عزت ينتظرنى الآن فى بيته ، لأن صحته متوعكة .

بعد وصولى إلى الفندق تركت صديقى الشاعر محمود درويش لكى يخلد
الراحة . بعد عناء الرحلة . ثم مضيت إلى بيت عزت . استقبلنى بالأحض
عند الباب الخارجى . كانت الشعرات البيض قد غزت شعره كليًا (ولد الش
عام ١٩٣٠ ولكنه يبدو أكبر من عمره الحقيقى بعشر سنوات) . ضحك ق
« ها قد عدنا والتقينا يا صديقى » فى تلك الليلة شرب كثيرًا . ولكنه

صاحيًا . يقظًا . غنى لنا أغنية كان الأنصار يغنونها أثناء الاحتلال الألمانى ليوغسلافيا فى الحرب العالمية الثانية . ثم قرأ علينا بعض قصائده الجديدة . كان فرحًا كالأطفال . يداعب هذا ويشرب نخب ذاك . وفى نهاية الليل ومن الكهوف السحرية التى كان يختبىء فيها القراصنة والصعاليك والسكارى والشعراء والمتوحدون . كنا نسمع صوت ناى ونحيب امرأة كانت تصلى عند أقدام قمر مصلوب على الجدار . صوت امرأة تختبىء فى محارة على شاطىء بحر لا قرار له أو ساحل . أما الشاعر فقد كان يكشف صدره لسيف البرق . ولنسره العجوز لكى ينهش كبده .

قال : « متى يبزغ الفجر ؟ » ثم صاحت الديكة . واستيقظ العالم من جديد .

ذهبت فى اليوم الثانى لزيارته فى دار النشر الكبرى للكتب الأدبية فى سراييفو . التى قد أصبح هو مديرها الجديد . استقبلنى هناك حشد من السكرتيرين . قادونى فى ممرات طويلة . ثم أدخلونى عليه . ابتسم وقال : « انظر لقد أصبحت بيوقراطيًا » . قلت له : « ولكنك لا تصلح لهذه المهنة » أجاب : « لمَ لا ؟ أن البيوقراطيين يتهمون الشعراء بالكسل وعدم حب العمل والشعور بالمسئولية وقد قبلت هذه الوظيفة تحديًا لهم . ولكى أثبت لهم وللآخرين بأننا أفضل منهم فى كل شىء » وقد شدد على الكلمتين الأخيرتين . وهو يبتسم ساخرًا . ثم اعتدل . وقال : « إن لك عندى هديتين » وناولنى

كتابين جديدين . كان أحدهما مجموعة شعرية جديدة لى ، ترجمها إلى اللغة الصربية ـ الكرواتية الدكتور سليمان جروزدانتش بعنوان « رسالة حب إلى امرأة » . وهى ثانى مجموعة شعرية لى ، تصدر فى يوغسلافيا . أما المجموعة الأولى فقد صدرت فى بيوغراد عام ١٩٦٦ بعنوان « أشعار فى المنفى » وكان قد ترجمها رادى بوزوفيتش أستاذ الأدب العربى فى جامعة بيوغراد .

أما الكتاب الثانى الذى أهداه إلى عزت ، فقد كان مجموعة شعرية جديدة له بعنوان (رسائل) وجميع قصائد هذه المجموعة مكتوبة على شكل رسائل شعرية موجهة إلى اثنين وثلاثين شاعرًا من شعراء يوغسلافيا والعالم . كنت أنا واحدًا منهم . وقد طلب من الدكتور سليمان جروزدانتش الذى كان حاضرًا ، أن يترجم القصيدة الموجهة لى ، إلى العربية ، وهى بعنوان (إلى عبد الوهاب البياتى) :

الحياة أيها الصديق البياتى ، تحل كل شىء
وقصيدتى هذه ، ليست مجرد وزن وقافية
والمدن التى اضطهدتك ذات يوم
ستقيم لك تمثالاً .
متى يكون ذلك ؟ ـ وفى نهاية أى قرن
لست أدرى ، ولكنه سيكون حتمًا

فها أنذا أشعر كأننى قد تناولت مع ذلك التمثال

فى زمن ما الطعام ، فى حى قديم من أحياء سراييفو

* * *

طوال أيام المهرجان الشعرى ، لم يحضر عزت سرايليتش أمسياته . سألت البعض عن أسباب عدم حضوره من قبيل معرفة وجهة النظر الأخرى : البعض ، همس ، بأنه يعيش قصة حب جديدة ، البعض الآخر اصفر لونه وارتعدت فرائصه ، آخرون قالوا : إن المهرجان لم ينجح فى هذا العام ، لأن عزت لم يمنحه بركاته . لكن جميع هؤلاء لم يكونوا يعرفون بأن عزت سرايليتش قد عاد إلى مملكته الشعرية ، ليشق القنوات ، ويبنى الجسور ويحصن الأسوار ، ويبذر بذورًا جديدة فى حدائقها .

إنه الآن يكتب من جديد ، نبوءة عرّافة « دلفى » التى حذرت من الالتفات إلى الوراء .

نماذج من شعره

ـ ١ ـ

أتنزه فى مدينة شبابنا
وأبحث عن شارع لاسمى
الشوارع الصاخبة الكبيرة ، أتركها لعمالقة التاريخ
عندما كان التاريخ يسير ، ماذا كنت أفعل أنا ؟
ببساطة ـ كنت أحبك .
أبحث عن شارع صغير : بسيط عادى
يمكننا بعيدين عن أعين الناس
نتنزه فيه ، حتى بعد الموت
س ضروريًا فى البداية أن يكون عامرًا بكثير من الخضرة أو حتى
لطيور

المهم أن يتمكن الإنسان والكلب الهاربان من المطاردة
من اللجوء إليه
ومن المستحسن أن يكون مُعبّدًا
ولكن ، أخيرًا ، وهذا أيضًا ، ليس الأهم
الأهم هو أن لا يُصاب أحد بكارثة
فى شارع يحمل اسمى

ـ ٢ ـ

اكتب على العنوان الأخضر للصيف
لتكن القبلات التى تبعثها لى آخر أنباء المساء
إن رأسى مملوء بمقطوعات رائعة
ولا أحد يغفر لى أو لا يغفر
لقد كتبوا هذا الصباح شيئًا بمناسبة ديوانى الجديد
ادّعوا مرة أخرى ، أن هناك تأثيرات ، حكايات كاملة
التأثير الأكبر قد قامت به طالبة من قسم اللغة الألمانية

ولكنهم قد سكتوا عن ذلك ، إذ ، يالله ، من يهمه ذلك .
من يهمه أنك بالنسبة لى هونولولو ومدغشقر ومكسيكو
والتاريخ الذى اجتزته طولاً وعرضًا وأنا أرتجف
إن اسمك لم يدخل أى قاموس
لستِ فى أية موسوعة ، ولا فى أى فهرس
لكنك أنت لى كل شىء . كاليوم الأول من السلام للجندى
سرير ودموع وزهور فى مزهرية
إن عيونك هى مطالعاتى الوحيدة
فى هذا اليوم الذى يمر وينقضى

-٣-

لا تتعجلوا فى أن تصبحوا شعراء أيها الشبان
أبقوا أطول ما يمكن عند مرحلة ما قبل الشاعرية
لشاعر فى الحياة ليس كما هو فى الكتب
فالأشعار هى الهزائم

ربما تنتظركم الورود فى النهاية
لكن الأشواك هى التى تدوم طويلاً
وعندما لا تتحملون أكثر ،
فحينذاك ستولد الأغنية من تلقاء نفسها

ـ ٤ ـ

لو مت تلك الجمعة فى باريس
فمن سيبعث برقية إلى البيت بأنى قضيت نحبى
إذ لابد من التحقيق فى البوليس ثلاثة أيام
بأنى كنت أبدًا أعيش
لو مت ذلك السبت فى وارشو
لتأخرت آنسة بولندية جميلة عن الموعد
آنسة جميلة تعمل فى الاستقبال
لو مت ذلك الأحد فى لينينغراد

لكان ذلك أشد سوءًا ، إذ لوجب على الليلة البيضاء
أن تظهر بشارة سوداء على كمها
وقولوا : كيف تكون ليلة بيضاء بشارة سوداء
على كمها .
لو مت ذلك الثلاثاء فى برلين
لصدر نبأ أن كاتبًا يوغسلافيًا فاجأه الموت فى برلين
ولكن يجب ــ وهذا ليس شعارًا كاذبًا ــ أن أموت
على صدر وطنى
ألا ترون ، كم كان حسنًا ، أنى لم أمت ، وأنى
مرة أخرى بينكم .
يمكنكم أن تصفروا استهجانًا ، يمكنكم أن تصفقوا
استحسانًا
ألا ترون ، كم كان حسنًا ، أنى لم أمت ، وأنى
مرة أخرى بينكم .

- ٥ -

كلنا يسعل حالما تسعل « تمارا »
عندما تكون حرارة « تمارا » ٣٨ كلنا ترتفع حرارته
النهار أمام الباب ، ولكنه هو الآخر ، خائف
نوعًا ما وإلاّ فأين عصافيره ؟
إلى أين رحل الربيع فجأة ؟ إلى أية أرض سعيدة ؟
إذا استمر هكذا طويلاً ، فمصير الصيف سيكون غامضًا .
حينما تطأطئ « تمارا » رأسها ، كلنا لا يكاد رأسه يتماسك .
كلنا مرضى . وأغنيتي عنها ، أيضًا مريضة .

جريجوري كورسو

ليالي روتـردام

لقد اختار القدر الإغريقى جريجورى كورسو . لكى ينقضّ عليه بصواعقه . فيحرقه ويحطمه . ويصنع من رماده شاعرًا كبيرًا .

عندما فتح كورسو عينيه على مدينة نيويورك التى ولد فيها عام ١٩٣٦ من أبوين إيطاليين . صرخ مذعورًا من الفخ الجهنمى الذى ولد فيه . ولكن صرخاته ذهبت سدى . فلقد استلمته هذه المدينة ــ المبغى الكبير ــ التى تحكمها عصابات المافيا وصيارفة اليهود ، وتشرد فيها . ودخل مستشفياتها . ورأى الدم والجريمة والاضطهاد العنصرى والطبقى بعينيه . وذاقه حتى الجنون . ودخل السجن وهو فى عامه السابع عشر . وقضى ثلاث سنوات فيه .

وفى كل مساء من هذه السنوات الثلاث . كان يطل من وراء قضبان سجنه . فيتأمل ــ المدينة الفاجرة ــ مدينة الحديد والأسمنت والحجارة ــ التى لعنها رواد الفكر التقدمى الإنسانى ابتداء بجوركى وانتهاء بلوركا . فكان يرى نفسه فى أدغال مع الأطفال السود والبورتوريكيين وغيرهم من أطفال حثالة المهاجرين الفقراء . ضائعًا جائعًا بلا هوية أو انتماء فكتب بعد أن خرج من

السجن عن الذين لا يملكون (وخرجت من السجن . أحب الإنسان . لأن جميع الناس الذين قابلتهم هناك . كانوا على كبرياء وحزانى وجميلين وضائعين) . وكان قد بدأ ينظم الشعر وهو فى السجن . فأهدى ديوانه (فلولين) ١٩٥٨ (إلى ملائكة سجن كلينتون الذين أعطونى . وأنا فى السابعة عشرة . من جميع الزنزانات المحيطة بى . كتب إشراق) .

قرأ والت ويتمان وعزرا باوند بإعجاب . ولكنه كان على موعد مع القدر . عندما قادته قدماه ذات مساء . دون أن يدرى . إلى بار فى عام ١٩٥٠ فالتقى هناك بألن غنز برج . وعندما التقت عيناهما . ابتسم كل منهما للآخر . فقد عثر الشيطان على مريده . أو المريد على شيطانه ـ كما يقول المثل الشعبى .

كان ألن غنز برج فى تلك السنة بالذات قد توج ملكا للمغلوبين . وسطع نجمه . وأصبح معبود الحزانى والضائعين والباحثين عن مملكة الله والإنسان فى جحيم المدن الأمريكية الفاقدة الذاكرة . المحاطة بأسلاك الخوف الشائكة . والمحاصرة بالطاعون الذرى والهيدروجينى وعيون المخابرات .

ولم يلبث جريجورى كورسو أن خرج من معطف ألن غنز برج الشعرى . وألقى به . أى بالمعطف . إلى كلاب الشارع . وسار عاريًا . لا يلوى على شىء . وإذا كانت قصيدة ألن غنز برج (نباح) ١٩٥٦ قد اعتبرت أعظم مرثاة فى الأدب الأمريكى . أو أنها « أهم قصيدة طويلة نشرت فى أمريكا منذ الحرب الثانية » أو أنها « بالنسبة للجيل الجديد ما كانته ـ الأرض الخراب ـ

للجيل الأسبق » وإذا كان مؤلفها قد تعرض للمحاكمة قبل نشرها . وإذا كان غنز برج قد كتب فى قصيدته (الغريب المكفّن) يقول :

لحمى حجر وجهى ثلج

أتمشى على سكة الحديد جيئة وذهابًا

عندما تكون شوارع المدينة سوداء ميتة

جسر سكة الحديد فراشى .

فإن جريجورى كورسو . كان قد رمى القفاز فى وجه معبوده ومعلمه . دون أن يتخلى عن ولائه وحبه له . وقرر أن يشق طريقًا جديدًا لنفسه . ليس تابعًا لأحد إلاّ لقدره الشعرى وموته الخاص .

ولم يلبث أن تزوج بفرنسية أحبها . كانت تقيم فى الولايات المتحدة ، فرحل معها إلى باريس وأنجب منها طفلاً .

ـ ٢ ـ

أثناء مهرجان الشعر العالمى السابع الذى انعقد فى روتردام ما بين ١٤ ـ ١٩ حزيران ١٩٧٦ . كنت أنا وصديقى الشاعر السوفيتى أندريه فوزنيسنسكى . ورئيس تحرير مجلة فنية كبيرة تصدر فى كوبنهاجن (لا أذكر اسم هذا الصديق

الآن) نتجاذب أطراف الحديث فى نادى الفنانين . اقتحم النادى رجل . عليه مهابة وجلال وكبرياء الهنود الحمر . منفوش الشعر . بلا ربطة عنق (وقد اعترف فيا بعد أنه لم يمشط أو يسرح شعره أو يضع ربطة عنق طوال حياته . إلاّ مرة واحدة . وذلك عندما ذهب . ليخطب زوجته الحالية من والديها) .

عندما اقترب منا صافح الشاعر أندريه فوزينسنسكى وعانقه . فقد سبق لهما . أن التقيا وتعارفا . وأعجب كل منهما بالآخر . ثم صاح : « أين البياتى ؟ » .

قال أندريه بمودة : « التفت إلى اليسار قليلاً . ياكورسو . فأنت تنظر إلى الأمام دائمًا » .

ثم التفت بسرعة . فالتقت نظراتنا . فقال موجهًا الكلام إلى : « أنت . كما وصفك لى أصدقاؤك وأصدقائى العرب والفرنسيون والأجانب فى باريس . لاتزال عيونك . تشى . بأنك تنتظر الذى يأتى ولا يأتى . لقد جئت إلى روتردام لكى ألقى شعرى . ولكى أرى صديقى أندريه . وألتقى بك . فما سمعته عنك . أثار فضولى » .

ثم جلس . وقال : « اسمحوا لى أن أشرب وآكل وأدخن على حسابكم . فليس معى نقود » .

وقبل أن يسمع إجابتنا . طلب طعامًا وشرابًا . وقال : « أما بالنسبة

للسجائر . فلسوف أستولى على هذه العلبة » ثم وضع يده على علبة سجائر . كانت على الطاولة .

قال له أندريه : « لقد نشر الملحق الأدبي لجريدة ـ الازفستيا ـ قبل شهرين نعيًا لك ، ومقالة طويلة عن حياتك ومؤلفاتك ، وعن ظروف موتك الغامض » .

ابتسم قائلاً : « إنها فرصة نادرة لكي يتذكرني فيها أصدقائي وقرائي في موسكو » ثم قلنا له مازحين : « عندما تموت في المرة القادمة ، فالرجاء أن تبرق لنا ، لكي نأتي لتوديعك » ضحكنا وضحك معنا .

ثم تشبعت أحاديثنا وطالت ، كما طال الليل ، وعندما بزغ الفجر ، كنا نجر أقدامنا إلى الفندق الذى نقيم فيه .

ـ ٣ ـ

بعد أربع ساعات رن جرس التليفون فى غرفتى ، وكان المتكلم هو جريجورى كورسو من جديد ، قال مداعبًا : « تعال بسرعة ، فلقد استلمت من مؤسسة روتردام للفنون مكافأة قصائدى التى سألقيها فى المهرجان ، وإنها لفرصة أن نذهب إلى البار لكى أسدد ما علىَّ من ديون » .

سرنا فى شوارع روتردام المبتلة غب المطر ، التى تكاد تخلو من المارة فى مثل

هذه الساعات من النهار . ودلفنا إلى بار يختفي بابه وراء ألف باب .

قال : « أنا مجنون بحضارة سومر وبابل وآشور . فحدثني عما لا أعرفه عنها » .

قلت : « أنت أنكيدو . فماذا تريد أن تعرف أكثر مما أعرفه أنا ؟ » .

قال محتجًا : « أنا كلكامش . لأن أنكيدو كان أحمق . مات . بعد أن انتهت دورة حياته على الأرض » ثم ردد بصوت عالٍ : « فإذا أكلت خبز الحياة فإني أقوم من الموت . وإذا رشت على « ماء الحياة » عادت إليّ الروح » ثم أردف : « هل (أور) لا تزال قائمة ؟ » قلت : « لقد سحقها الزمان وتحولت إلى خرائب وأطلال بالية . يكفيها الرماد . وتعوى الذئاب تحت قبة ليلها . الذى لا ينجلى » .

قال : « لا أصدق . وبودى أن أحج إليها ماشيًا » .

قلت ـ لأغير الحديث ـ « هل تعرف شيئًا عن الحضارة العربية ؟ »

قال : « أنا أتبع موتى وأتبع عشتار فى جميع تحولاتها . فعشتار فى شعرك ، كما أخبرنى . أحد أصدقائى العرب فى باريس ، قد أصبح اسمها (عائشة) فى تحولاتها الأخيرة ، وهذا التحول مطابق تمامًا لتحولها فى ظل الحضارة العربية الإسلامية » .

قلت ـ لأغير الحديث ثانية ـ : « هل قرأت المعلقات ؟ » .

قال ، بأسف : « كلاّ ، لأنى لم أعثر على ترجمات لها بالإنجليزية ، وربما يعود سبب ذلك ، إلى تشردى ، وعدم الاستقرار فى حياتى » .

ثم أخرج قلمًا وورقة من جيبه ، وتابع : « أرجوك أن تكتب لى أسماء بعض شعراء الشرق الذين تحبهم ، وتعتقد أن هناك ترجمات بالانجليزية لأشعارهم » . كتبت على طرف الورقة المدعوكة اسم : (جلال الدين الرومى) و (مرزا غالب) و (حافظ شيرازى) ، ووضعها بعناية فى جيبه ، وهو يقول : « سأكتب إلى ناشر كتبى فى أمريكا لكى يرسل لى مؤلفات هؤلاء » .

ثم رنَّ صوته ، وهو يردد قصيدة (الموت) من ديوان (الذى يأتى ولا يأتى) المنشورة فى مجلة « الأدب الأجنبى مترجمًا » التى تصدر فى كندا ، وكان قد جلبها معه من باريس ، وكان منشورًا فيها الترجمات لأعمال شعرية وأدبية عربية .

كما قرأ ترجمة خطية بالانجليزية لقصيدة (تحولات نيتوكريس فى كتاب الموتى) من ديوان (كتاب البحر) التى أعد ترجمتها الدكتور محمد باقر علوان الأستاذ فى جامعة هارفارد . ثم قال : « الغريب أننا : (أنت وأنا) نلتقى فى أشياء كثيرة ، فلدى أنا ، أيضًا ، قصيدة منشورة فى مجموعتى (غاسولين) بعنوان (صلاة فى ممفيس) تحدثت فيها عن إيزيس والنيل وعن معجزة العودة إلى الحياة بعد الموت .

ـ ٤ ـ

فى مساء ذلك اليوم ، جاء دور جريجورى كورسو فى المهرجان ، فانقض على طواحين هولندا الساكنة فى حر الصيف ، وعلى رؤوس البورجوازيين الصغار ، بصواعق شعره ، مثل بطل من أبطال المآسى الإغريقية .

كان صوته ، يحمل ، كل عذابات طفولة المهاجرين والمنفيين والحزانى والضائعين فى كل مكان . أما المذلون المهانون ، المغلوبون ، فقد استقبلوه ، كما يستقبلونَ ملكًا أو أميرًا لهم .

ثم اختفى جريجورى كورسو فى نفس الليلة التى ألقى فيها شعره ، بنفس الطريقة التى جاء بها ، دون أن يودع أحدًا .

عندما عدت إلى الفندق ، وجدت رسالة موجهة إلى ، منه ، كتب فيها رقم تليفونه فى باريس ، راجيًا أن أتصل به ، عندما أمر بها ، وعبارة (أنت ملاك) بالحبر الأحمر .

عندما مررت بباريس ، بادرت بالاتصال به ، هاتفيًا ، جاءنى صوته مصحوبًا ببكاء طفلة ، يقول : إنه يقوم الآن بدور المربية أو الحاضنة لطفله ، لأن زوجته تذهب كل يوم إلى عملها ، وتتركه مع طفله ــ الذى هو بطاقة الانتماء الوحيدة ، التى يحملها جريجورى كورسو فى هذا العالم ــ واتفقنا أن

يتصل كلانا بالآخر فى اليوم الثانى صباحًا . ولكنى غادرت باريس فى اليوم الثانى إلى الوطن . وأنا أردد قصيدته (عودة إلى مهد الطفولة) من مجموعة (غازولين) :

نماذج من شعره

عودة إلى مهد الطفولة

أقف فى الضياء المعتم ، فى الشارع المعتم .
وأتطلع إلى نافذتى ، حيث كنت قد ولدت هناك .
الأنوار تتلألأ فى الأعلى ، ومن هنا وهناك أناس يتحركون .
بمعطف مطر وسيجارة فى الفم
بقبعة على العين ويد على المسدس .
أعبر الشارع وأدخل البناية .
صفائح النفاية لم تنقطع رائحتها .
أصعد إلى الطابق الأول . المقابض المتسخة
تصوب نحوى سكينًا .

أنتزعه من استغراقه فى الساعات الضائعة .

* * *

على جدران غرفة مفروشة كئيبة

أعلق التصاوير لفتيات طفولتى ـ

بقلب منكسر أجلس ، متكئًا على الطاولة ،

أتطلع ، ويدى على خدى

إلى عينى هيلين الفخورين .

وفم جان المسترخى ،

وشعر سوزان الذهبى .

ثلاثة

ـ ١ ـ

مغنى الشارع مريض

يجثم فى البوابة ، ممسكًا قلبه

أغنية لم تُغن فى ضوضاء الليل

ـ ٢ ـ

عبر الجدار
البستانى المعمر يغرس أثلامه
شاب جديد
جاء ، ليشذب شجيرات السور

ـ ٣ ـ

الموت ينتحب ، ذلك لأن الموت إنسانى
يقضى طوال نهاره فى السينما
عندما يموت طفل .

لست بحاجة إلى الشفقة

عرفت ممرضات الشفقة الغريبات
رأيتهن يقبلن المريض ويحدبن على العجوز
يقدمن الحلوى إلى المجنون
راقبتهن ، فى الليل ، مظلمات وكئيبات
يدفعن الكراسى المتحركة بجانب البحر
عرفت كهنة الشفقة الكبار المترهلين
العجوز الرمادية الشعز ، الصغيرة
الكاهن الجار
الشاعر المشهور
الأم
عرفتهم جميعًا
راقبتهم ، فى الليل ، معتمين وكئيبين
يلصقون إعلانات الرحمة

على أعمدة القنوط العارية .

* * *

عرفت الشفقة العلية القدرة نفسها
جلست بجانب أقدامها البيضاء الناصعة .
كاسبًا ثقتها
لم نتفوه بأية بذاءة
لكنى ذات ليلة عُذبت من قبل الممرضات الغريبات
والكهنة المترهلين
العجوز الصغيرة ركّبت سيارة مجنزرة فوق رأسى
الكاهن شقَّ بطنى ووضع يده فى داخلى
وصرخ : « أين روحك ؟ أين روحك ؟ »
الشاعر المشهور حملنى وألقانى من النافذة
الأم تخلت عنى !
هرعت إلى الشفقة مقتحمًا خدرها

فدنسته

وبسكين عمياء طعنتها ألف طعنة

ودعكتها بالقاذورات

حملتها بعيدًا على كتفى ، مثل غول مفترس

تحت فحمة الليل الحجرية

الكلاب عوت ، القطط ولَّت هاربة ، جميع النوافذ أغلقت

حملتها إلى الطابق العاشر

ألقيت بها على أرضية غرفتى الصغيرة

ركعت بجانبها ، وبكيت وبكيت

(٣)

لكن ما هى الشفقة ؟ لقد قتلتها .

لكن ما هى ؟

أنت رحيم لأنك تعيش حياة رحيمة ،

القديس (فرانس) كان رحيمًا .

مالك الأرض هو رحيم أيضًا .

القصبة أيضًا

أيمكن أن أقول بأن الناس الذين يجلسون فى المتنزهات

هم أكثر شفقة .

ياسنا شاميج

رجل في دمي

ياسنا شاميج : شاعرة يوغسلافية ولدت عام ١٤٩ فى سرايفو عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك . وأكملت دراستها فى كلية الفلسفة . وهى تشتغل الآن معيدة فى نفس الكلية . أصدرت فى عام ١٩٧٤ مجموعة شعرية بعنوان (لحظات ناقصة) . كما نشرت قصة بعنوان (حدث ما) . والقصائد الست المنشورة هنا . هى من عشرين قصيدة جديدة للشاعرة قمت بترجمتها إلى اللغة العربية بعنوان (رجل فى دمى) وهو العنوان الذى وضعته الشاعرة لمجموعتها الجديدة هذه . وهذه القصائد تنشر لأول مرة . قبل نشرها فى لغتها الأصلية .

- ١ -

عبرتُ جميع طرق السماء

والزهد

فى الوحدة فقط تكون

المعجزة أكيدة

كنت مع الآخرين

وهذه هى وحدتى

لكى أصل إليك

لتستقر فىّ

مرمرًا مصقولاً .

أنك الآن فى الزنزانة

فى النسغ تنحدر

وأنا الآن صوتى

منذور للمستحيل

هبطت إلى أعماق

ويداك مبسوطتان

محترقتان

زرقاوان

وأنا لست موجودة

ولن أكون

حتى تكون أنت أنا

ـ ٢ ـ

إذا كنت فى جانبى

سأغطيك فى بخار المدينة

فى القباب والمآذن

فى البعيد

فى نهاية الجسر

فى أصوات البواخر فى البسفور

سألبس نظراتك
مثل حرير حول جسدى
يرفرف مع صمت
النهار الذى يهجر المدينة
سنشرب معًا
هذه الصورة الرجراجة
للدنيا والبحر
سأتناول يديك وأضغط عليهما بقوة
حتى يتحطم الجسر من الألم
أنت الآن أبعد من دخان الفراق
ومن إشارة المرور هذه
من الشمس والليل
وليس بى منك إلاّ ظلال يدك فقط

- ٣ -

هذه الأيدى

والجسد المنتصب

والكلمة المسطحة

مجرد أشياء غير واقعية

للشكل الصافى للكذب

ارفع يديك

وقرِّب عينيك

وبحركة واحدة

عرِّنى

عرنى من جلدى

ومزق لحمى

وادخل من عيونى

إلى الليالى البيضاء

طهر الجسد بالنار

التى تُوجع

و ...

مُتْ حالمًا

فى أعماق أعماقى

أما أنا ــ فسأحيا

ــ ٤ ــ

سهلٌ عليهم أن يقولوها

لأنهم يعرفون ما يريدون ومالا يريدون

ولأنهم يملكون (لا) واحدة

صعبٌ علىّ أن أقولها

لأن لى لاءين

وصعب عليك أن تقولها أيضًا

مثلى تمامًا

لاننى عندما أقول (لا)

فواجبك أن تعرف إذا كنت أقصد

(لا ... نعم)

أو (لا)

لأجل هذه الـ (لا) والـ (نعم)

أنا آسفة

وأفهمك تمامًا

عندما تواجهني بـ (هل)

ـ ٥ ـ

ليس بمقدور

التنين أن يهاجمني

ولا آكلوا الحجر

فما أنا إلاّ كرية دمِ النهار

وهؤلاء

ما هم إلاّ خدم ليل
وديكة سكارى
يحبون اللحم
والدم
وأنا لا أخاف
هذه الحيوانات المتسلطة
لأن الشمس
الشمس تؤذيني
ولأن الريح
الريح تؤلمني
ولأن البحر
البحر يحرقني
ولأن السماء
والحجر :
السماء تقرصني

والحجر يعشقنى

أعطيه الشمس

أعطيه الريح

ليشربها

وهو

يعاندنى

ـ ٦ ـ

رجل فى دمى

كما فى عربة قطار

مختنقة بسحب الدخان

ومع الاهتزاز المستمر

للكلمات والتنهدات

نختنق

أنت وأنا

فى جسدى
تتضرع لكى تتنفس
وأنا أريد الدخان
والمزيد منك ومن الكلمات
لأخبئك فى عظامى
وأصفِّرك فى عروق
جسدى الوحيد
وأغطيك بجلدى المتصلب
تتضرع لكى تتنفس
وأنا لا أدعك
تخرج من دوائر أفكارى
وطرق النار
كما فى عربة قطار مختنقة
أنت وأنا
وحيدان

منغلقان

مصاقبان للنهار

وإلى أينا يمضى بنا الطريق

أنت تتضرع لكى تتنفس

وأنا لا أدعك .

ـ ٧ ـ

الساعة الآن هى الواحدة بعد منتصف الليل

لا شمس ولا هاوية ساحرة

فى هذا الليل

فما هذا الذى يدور فى عينى

ويعانقنى ؟

مجرد زمن بلا وجود ؟

وهذه الأيدى

بلا حركة

تتحسس جبهتى
وهذا الجسد بجانبي
يمتد إلى ما لا نهاية
ووجهه الآخر الموجود
الساعة الآن هى الواحدة بعد منتصف الليل
هذا الليل
يذهب ودموع المطر
تجلد ظهرى
تهيب بى أن أهرب
ولكن إلى أين سأذهب
فالزمن مثل العريس البردان
يلتصق بى
الساعة الآن هى الواحدة بعد منتصف الليل
المطر يجلد ظهرى
ويهيب بى أن أذهب

ولكن إلى أين سأذهب
فى هذا الوقت ، الأيدى
كنت فى داخلى تحترق
وكان الليل يحترق أيضًا
من وجهينا الملتهبين
والآن
أين ؟
وهل سيكون الشىء نفسه فى ذلك المكان
فها هوذا الزمن الذى يجىء
وها هى ذى الأحلام التى تذهب

ـ ٨ ـ

الفجر
هو يد الخلاص
لهذا الحزن الذى يأخذ بخناق الظلام

الموت فى الظلام مثل الطاووس
يبسط ذيله الشرير
ويجرى التفكير فيه بموت القريب
يقرض الجسد
شيئًا فشيئًا بألم .
غير مجد
أن يسند ثانية وجهى بيده
فى مكان ما ينام الجسد
لا شىء فيه
حتى الموت .
ها هو ذا يهبط إلى أعماقى
يتنفس فى داخلى
فلماذا لا يضاجع الموتى
ليعيش الأحياء
إذا هبط الفجر

فسأقبّل كل حزمة

من الضياء الصافى النبيل

سأقبل الحجر

الأرض

الريح التى تمر بى

سأقبل كل شىء

بعمق وحرص

وإخلاص

سأقبل كل شىء

لأنه علمنى التقبيل

- ٩ -

أنتظر

وهذا يعنى

يقظة التنبؤ الشرير

والأشياء غير المؤكدة ، المثيرة للسخرية
كما لو أن أحدًا ما يموّه الأشياء على
أعدُّ الثوانى التى تمر فوق إهابى ببطء
أرقب بينها هذا الذى أنتظره
ولكننى لا ألمس
إلاّ الدقائق العطنة .
أركض أمام النهار
لأسبقه
لأستعيد منه
وأستحوذ على ما سيجئ به ، قبله
ولكن هذا النهار لم يأت بعد ولم يكتمل
مثل طفل
يجلس فوق ركبتى
أنسى الانتظار
أهدهد النهار

فوق ركبتى

وأنظر إليه

وهو ينمو

ويشعل النار توًا

فى الغرفة

وعيناى جاحظتان

من الانتظار

ـ ١٠ ـ

ماذا رأيت فى جسدى

وأنت تقرّب شفتيك ؟

أيها الريح

ماذا رأيت من قبح فى وجهى

فأغمضت عينيك .

تعانقنى مثل الأعمى

عندما يلامس النار
بأيد مترددة
تلتفت حولى
أقف خرساء
فى فخ
والألسنة الهادرة
تضرب فىَّ عميقًا
وأنا لا أراك .
فى اللامكان
أرى أشجارًا فقط
تقهقه قهقهات عالية
وتنحنى نحو الأرض
أقف مبهورة
وأنت صدى فى جسدى
وأشعر

كأننى أصبحت أنا الريح أيضًا
ألتف حول الأشجار
التى تقهقه قهقهات عالية
وتنحنى نحو الأرض
وأربت عليها .

- ١١ -

وضعت المساء
بين ذراعى
وهو يرفرف الآن بين جسدى
هذا المساء
يدب الآن فى جسدى
وكأن الكون كله
يتوغل فى عظامى
ليستقر فى الرئة

وليصبح الجسد أكبر من السماء .
وضعت المساء
بين ذراعى .
دخلت بقدم السحاب
ومع هسهسة السماء
متوغلاً فى
مأخوذًا
بالشمس والمطر
والينابيع والظلام
وضعت المساء
بين ذراعى
وها أنت الآن قطرة ماء العناق
وأغنية الدم الصامت
واللانهاية المكورة المتوغلة فى
وضعت المساء

بين ذراعى

هائمًا ، مستيقظًا فى أعماق

- ١٢ -

أنت أعمى

أعمى تمامًا

فى داخلى

وعيناى تمران بمدن

وتقبِّلان الربيع

الذى يختبىء عنى

أنت لا ترى شيئًا

تنام فى أحلامك الهائلة

فى داخلى

وتظن كأن يدى

متثلجتان من الشتاء الذى ينتظرنى

على نافذتى عندما أعود إلى البيت

تظن أن عينى مغلقتان

عن النهار الذى يهرع إلى موعدى

وبراعم وقبلات

كل يقظتى

أنت فى داخلى

ولا تسأل

لمَ عظامى حارة ؟

والشوارع ضيقة ؟

والسماء لا تسعنى ؟

ولماذا ترتجف يدى

عندما تلامس الشىء الجديد .

أنت الآن فى داخلى

حجر من قطيفة

وآونة أخرى أرض متحجرة

لا ينبت فيها شيء
أنت لا ترى الآخرين :
الأغصان ، السفن البعيدة
فى عينى .
أنت الآن الموت
وفى لحظة أخرى الولادة
أنت لا ترانى
لأنك لا ترى إلا نفسك فى داخلى

- ١٣ -

الليل غطانا
بالسكون
والصمت
تدخل بابتسامة مشرقة
وأقدامك مثلجة

من المشى .
أشربك دون شعورى
بأنفاسى
تختال
فى دمى بنعومة
مثل تنويمة
أضع لك إكليلاً من الزهر
بشفاهى حول عنقك
أسكب نجومًا
فى عينيك
وضحكاتك
أنظر متفرعة إلى القمر
المنعكس على زجاج النافذة
فأنت الآن خيال أبيض
أشربه على مهل فى الليل

وآونة أخرى مجرد ريح
تحملنى سكرى .
أنت مجرد رغبة مستحيلة
مثل القمر
المنعكس على زجاج النافذة هذه

- ١٤ -

محترقًا فى أعماق
فى النار المتأججة
رجل ألفظه من فمى .
محترقًا فى أعماق
رجل هبط فجأة
إذا كانت يدى
ماء
وليست هى النار التى تأتى على كل شىء

إذا كان فكرى
حجرًا
فلتضعه بقوة
دون أن تلمسه .
سأنظر بدون انفعال
كيف يتعاقب الرجال
على جسدى
سأنظر بدون أن أغمض عينى
كيف يحترق الحب
ثانية

ـ ١٥ ـ

أريد أن أحلم
وأفكر بالسماء
وأقضم القمر

فى الأمسيات البطيئة
أريد أن أفتح النافذة
وأصرخ باسمك
أو بأى اسم آخر
وكما الشمس فى المساء
سألفظ القمر
العالق بأسنانى .
أريد أن أحلم
عندما أجلس إلى المائدة
وأتناول الحساء
وعندما أقول مرحبًا
أريد أن أحلم بك
وأنا أنظر إليك
مقبلة شفتيك فى يدى
لأن القمر فى تلك البرهة فى فمى

مثل عطر شرقى ينبعث من امرأة
ولأنك فى تلك البرهة
مثل نشوة النبيذ
وارتعاشة الجمال .
والحساء ترياق
أسكب فيه
نهارًا أسود
عاديًا .
أريد أن أحلم
أما أنت فماذا تستطيع
أن تفعل؟

ـ ١٦ ـ

فى عظامى
التى صدئت

من تكرار نفس الحركات

وخُدرت من نفس المناظر

استقر رجل

آه ساعدنى أيها السم الذى

استقر فىّ

واسكبه بكراهية

ومرارة قاتلة

ليخرج منى كالمجرى

وليذهب بعيدًا

كما جاء بغتة .

أشعر بضيق

ووحشة

فى عظامى

ولحمى ، أنا .

- ١٧ -

هذا الرجل
الذى مرّ
اخترقنى مثل الريح
من ظهرى
وقرقع فى عظامى
أشعر بالبرد
وهو يفعل بى ، هكذا ، دائمًا ،
كلما مرَّ من أمامى
كلماته تهرب إلى كل مكان
عيناه تنطان وراءه
متأخرتين
وفمى
طائر... فاغر...
ليقول شيئًا

-١٨-

كنا جالسين
تحت القمر
تحت السماء
على الحجر
وكل شيء كان
بالغ البساطة
الكلمات
السماء
الحجر
أما الضوء
الأحمر
على البيت
البالغ البساطة
فقد كان حيًا

ونافذ النظرة

يهمس من بعيد

اتركى هذا المساء البليل

هذا اللعب

البالغ السذاجه

- ١٩ -

لنلعب

فالحياة محجوبة عن عيوننا

ربما هى لم تكن

....

لنلعب كل الألعاب

أجرح شعورى

عانق كآبتى

افتح

ومزق

كل (لا)

ودع منها قليلاً فقط

لأجل المشاكسة

لأجل اللعب

وأنا

سأطبع قبلاتك

على كل جسدى

وعلى الأشجار

وعلى الأزهار المستيقظة .

شفتاك

تحت أظافرى

سأضعها

كل النظرات

سنجمعها فى نظرة واحدة

سأضع كلمتك
فى فمى
وهكذا سأمشى فى المدينة
وسأفعل أشياء جادة

ـ ٢٠ ـ

المرض
هو شوك الحياة منغرس
فى مرآة الموت
. . . . . .
المرض
محاط بوجوه وعيون
الذين يعيشون
الذين يشربون الضوء
الذين يلمسون الشمس بأيديهم

الذين يكرهون النهار

. . . . . .

المرض

هو لعبة الحياة

وعد

امتحان

. . . . . .

هو عودة من الدهشة

قسم بالسلم

دهشة مجنون

مدَّ يد الصلح

. . . . . .

المرض هو الحياة

متوجهة نحو نفسها

وإلى مصب حبر قرارها

وحزم فكر وانتظار
الميت
. . . .
هو مرآة
مظلمة ومائعة
يضع الموت فوقها إصبعه .
ويلحسه
يمصص شفتيه ويتذوق ضاحكًا
أما الحياة فهى تفر وتتسلل
مثل قطرة سحرية
من الشمس فى الفراغ
. . . .
مرة واحدة
الموت والحياة هما معًا
يتثاقلان فى الجسد

ويغلقان الدنيا

ويشتبكان بأيديهما

ويتمايلان

كأنهما عاشقان

يلعبان

لعبة غامضة

غريبة

الفهرس

دواوين وكتب للشاعر

١ ــ ملائكة وشياطين	الطبعة الثالثة	بيروت	١٩٦٩
٢ ــ أباريق مهشمة	الطبعة الخامسة	بيروت	١٩٧٠
٣ ــ المجد للأطفال والزيتون	الطبعة الرابعة	بيروت	١٩٦٩
٤ ــ أشعار فى المنفى	الطبعة الخامسة	بيروت	١٩٦٩
٥ ــ عشرون قصيدة من برلين	الطبعة الثالثة	بيروت	١٩٧٠
٦ ــ كلمات لا تموت	الطبعة الثالثة	بيروت	١٩٧٠
٧ ــ النار والكلمات	الطبعة الثالثة	بيروت	١٩٧١
٨ ــ قصائد	الطبعة الأولى	القاهرة	١٩٦٥
٩ ــ سفر الفقر والثورة	الطبعة الثالثة	بيروت	١٩٧١
١٠ ــ الذى يأتى ولا يأتى	الطبعة الرابعة	القاهرة	١٩٨٥
١١ ــ الموت فى الحياة	الطبعة الثانية	بيروت	١٩٧١
١٢ ــ بكائية إلى شمس حزيران والمرتزقة	الطبعة الأولى	بيروت	١٩٦٩
١٣ ــ عيون الكلاب الميتة	الطبعة الأولى	بيروت	١٩٦٩
١٤ ــ الكتابة على الطين	الطبعة الثالثة	القاهرة	١٩٨٥
١٥ ــ يوميات سياسى محترف	الطبعة الأولى	بيروت	١٩٧٠
١٦ ــ رسالة إلى ناظم حكمت وقصائد أخرى	الطبعة الأولى	بيروت	١٩٥٦

١٧ ـ بول ايلوار مغنى الحب والحرية لكلود روا
بالاشتراك مع أحمد مرسى الطبعة الأولى بيروت ١٩٥٧

١٨ ـ اراغون شاعر المقاومة لمالكولم كولى وبيتر. ك. رودس
بالاشتراك مع أحمد مرسى الطبعة الأولى بيروت ١٩٥٨

١٩ ـ محاكمة فى نيسابور (مسرحية) الطبعة الثانية تونس ١٩٧٣

٢٠ ـ تجربتى الشعرية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧١

٢١ ـ المجموعة الشعرية الكاملة فى مجلدين ١٩٥٠ ـ ١٩٧٠ بيروت ١٩٧١

٢٢ ـ قصائد حب على بوابات العالم السبع الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٨٥

٢٣ ـ كتاب البحر الطبعة الثانية القاهرة ١٩٨٥

٢٤ ـ سيرة ذاتية لسارق النار الطبعة الثانية القاهرة ١٩٨٥

٢٥ ـ صوت السنوات الضوئية الطبعة الثانية القاهرة ١٩٨٥

٢٦ ـ قمر شيراز

٢٧ ـ مملكة السنبلة

رقم الإيداع ٢٧٩٢/ ٨٥ الترقيم الدولي ٨ ـ ٠٣٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا: شروق ـ تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا: داشروق ـ تلكس: SHOROK 20175 LE

عبد الوهاب البياتي

مواليد بغداد ١٩٢٦

تخرج في دار المعلمين عام ١٩٥٠ وعمل مدرسا ثانويا.

صدر ديوانه الأول «ملائكة وشياطين» عام ١٩٥٠ ثم توالت أعماله بعد ذلك.

فصل من عمله في مجلة الثقافة الحديثة واعتقل عام ١٩٥٤ ثم ترك العراق إلى سوريا فلبنان فمصر.

عاد إلى وطنه عام ١٩٥٨ مديرا للتأليف والترجمة والنشر بوزارة المعارف العراقية.. ويعمل الآن مستشارا ثقافيا في مدريد.

مثّل بلاده في أكثر من مهرجان دولي.

يوما استطاع ان يسرق نار الشعر فانطلق بها في ملكوت الحلم. يحترق بها ويفني نفسه فيها. ويتوحد مع العالم والكون.

وهو رحل البياتي ليعود.. ويعود ليرحل من جديد. فيعانق (شيراز) أو يفني نفسه في البحث عن (الذي يأتي ولا يأتي).. أو يغوص في أعماق (البحر).. فيحترق بأشعاره (على الطين). أو يختفي مع (عائشة) التي تبعث يوما في صفصافة على شطآن النهر!

إنه مهاجر إلى مدينة لا يصل إليها أحد. وهجرته تلك هي قدره المحتوم الذي لا يستطيع الفكاك منه.. وهي تكمل مسيرات البحث والكشف والارتياد.. رحلة حافلة. موغلة قاسية